دموع
من رسائل الطَّائشة(١)

ورسائلُ هذه الطَّائشةِ إلى صاحبها ، تُقرأ في ظاهرها على أنَّها رسائل حُبٍّ ، قد كُتِبت في الفنون الَّتي يترسَّل بها العشَّاق ؛ ولكنَّ وراء كلامها كلاماً آخر ، تقرأ به على أنَّها تاريخ نفسٍ مُلتاعةٍ لا تزال شُعلةُ النَّار فيها تتنَمَّى ، وترتفع ، وقد فدحتها بظلمة الحياة ؛ إذ حصرتها في فنٍّ واحدٍ لا يتغيَّر ، وأوقعتها تحت شرطٍ واحدٍ لا يتحقَّق ، وصرفتها بفكرةٍ واحدةٍ لا تزال تخيب .

وأشدُّ سجون الحياة فكرةٌ خائبةٌ يُسجن الحيُّ فيها ، لا هو مُستطيع أن يدعها ، ولا هو قادر أن يحقِّقها ؛ فهذا يمتدُّ شقاؤه ما يمتدُّ ، ولا يزال كأنَّه على أوَّله لا يتقدَّم إلى نهايةٍ ، ويتألَّم ما يتألَّم ، ولا تزال تشعِره الحياة أنَّ كلَّ ما فات من العذاب إنَّما هو بدْءُ العذاب !

والسَّعادة في جملتها ، وتفصيلها أن يكون لك فكرٌ غير مقيَّد بمعنىً تتألم منه ، ولا بمعنىً تخاف منه ، ولا بمعنىً تحذر منه ؛ والشَّقاء في تفصيله وجملته انحباس الفكر في معاني الألم ، والخوف ، والاضطراب .

وقد اخترنا من رسائل (الطَّائشة) هذه الرِّسالة المصوَّرة ؛ التي يَبْرقُ شعاعها ، وتكاد تقوم بإزاء نفسها كالمرآة بإزاء الوجه ، وهي فيها عذبةُ الكلام من أنَّها مُرَّة الشُّعور ، متَّسقة الفكر من أنَّها مختلَّة القلب ، مسدَّدة المنطق من أنَّها طائشة النَّفس ؛ وتلك إحدى عجائب الحبِّ ، كلَّما كان قفْراً مُمحِلاً اخضرَّت فيه البلاغة ، وتفنَّنت ، والتفَّت ؛ وعلى قلَّةِ المُتعة ؛ من لذَّاته تزيد فيه المتعة من أوصافه ،

(١) نحن لم نخترع الطائشة ، فهي فتاة متعلمة أديبة ، قد أحبت رجلاً متزوجاً ، فطاش بها الحبُّ طيش الطفل إذا مُنع ما يطمعُ فيه ، وتركها الحبُّ عليلةً لما بها ، ثم قَضَتْ . وكان بعضُ صواحبها يعذلنها ، ويرمينها بالتُّهمة ، فكانت تقول : إنَّها منهنَّ كالغائب المحكوم عليه ، لا هو يملكُ دفاعَ المذنب ، ولا الحكم عليه يملك إثبات الذنب ! (ع) .

ولكأنَّ هذا الحبَّ طبيعةٌ غريبةٌ تروَى بالنَّار ، فتُخصب عليها ، وتتفتَّق بمعانيها ، كما تروى الأرض بالماء فتُخصِب ، وتتغطَّى بنباتها ، فإن روِيَ الحبُّ من لذَّاته ، وبَرد عليها ؛ لم يُنبت من البلاغة إلا أخفَّها وزناً ، وأقلَّها معاني ؛ كأوَّل ما يبدو النَّبات حين يتفطَّر الثَّرى عنه ، تراه ، فتحسبُه على الأرض مسْحة لونٍ أخضر ، أو لم يُنبت إلا القليل القليلَ كالتَّعاشيب[1] في الأرض السَّبخة[2] . . .

إن قصَّة الحبِّ كالرِّواية التمثيليَّة . أبلغ ما فيها ، وأحسنه ، وأعجبُه ما كان قبل « العُقدة » ، فإذا انحلَّت هذه العقدة فأنت في بقايا مُفسَّرةٍ مشروحةٍ تريد أن تنتهي ؛ ولا تحتمل من الفنِّ إلا ذلك القليل الَّذي بينها ، وبين النِّهاية .

* * *

وهذه هي رسالة الطائشة إلى صاحبها .

« . . . .

« ماذا أكتب لك غيرَ ألفاظ حقيقتي ، وحقيقتك ؟

« يُخيَّل إليَّ أنَّ ألفاظ خُضوعي وتضرُّعي متى انتهت إليك انقلبت إلى ألفاظ شِجارٍ ، ونزاعٍ !

« أيُّ عذلٍ أن تلمسكَ حياتي لمسة الزَّهرة النَّاعمة بأطراف البنان ؛ وتقذِفني أنت قذف الحجَر بملءِ اليدِ الصُّلبة مُتمطِّيةً فيها قوَّة الجسم ؟

« جعلْتني في الحبِّ كآلة خاضعةٍ تُدار ، فتدور ؛ ثم عَبثت بها فصارت متمردةً توقَّف ، ولا تقف ؛ والنِّهاية ـ لا ريب فيها ـ اختلالٌ ، أو تحطيم !

« وجعلتَ لي عالماً ؛ أمَّا لَيْلهُ ؛ فأنت ، والظلام ، والبكاء ؛ وأمَّا نهارُه ؛ فأنت ، والضِّياءُ ، والأمل الخائب . هذا هو عالمي : أنت ، أنت . . . !

« سمائي كأنَّها رُقعةٌ أطبقت عليها كلُّ غيوم السَّماء ، وأرضي كأنَّها بُقعةٌ اجتمعت فيها كلُّ زلازل الأرض ؛ لأنَّك غيمةٌ في حياتي ، وزلزلةٌ في أيَّامي .

« يا بُعدَ ما بين الدُّنيا ؛ الَّتي حولي ، وبين الدُّنيا ؛ الَّتي في قلبي !

* * *

---

(١) أعشاب قليلة متفرقة هنا وهناك . (ع) .

(٢) « السبخة » : أرض ذات نَزٍّ ومِلْح ، لا تكاد تنبت .

« ما يَجمُل منك أن تُلزمَني لوم خطأ أنت المخطئ فيه ! سَلني عن حبِّي أجِبْك عن نكبتي ، وسلني عن نكبتي أَجِبْك عن حبِّي !

« كان ينبغي أن تكون ليَ الكبرياءُ في الحبِّ . ولكن ماذا أصنع وأنت منصرفٌ عنِّي ؟ وَيلاه من هذا الانصرافِ ؛ الَّذي يجعل كبريائي رِضاً منِّي بأن تَنسى ، فتَنسى . . . !

« ليس لي من وسيلةٍ تعطِفُك إلا هذا الحبُّ الشَّديد ؛ الذي هو يَصُدُّك ، فكأنَّ الأسباب مقلوبةٌ معي منذ انقلبت أنت !

« ويُخيَّل إليَّ من طُغيان آلامي أنَّ كلَّ ذي حُزنٍ فعندي أنا تمام حُزنه !

« ويُخيَّل إليَّ أنِّي أفصح مَنْ نطق بآه !

« عذابي عذاب الصَّادق الَّذي لا يعرف الكذِب أبداً ، أبداً ! بالكاذب الَّذي لا يعرف الصِّدق أبداً ، أبداً !

« كم يقول الرِّجال في النِّساء ، وكم يَصفونهنَّ بالكيْد ، والغدر ، والمكر ، فهل جئت أنت لتُعاقِبَ الجنس كلَّه فيَّ أنا وحدي . . . ؟

« ما لكلامي ينقطع كأنَّما هو أيضاً مختنق ؟

* * *

« لشدَّ ما أتمنَّى أن أشتريَ انتصاري ، ولكنَّ انتصاري عليك هو عندي أن تنتصر أنت .

« إنَّ المرأة تطلب الحرِّية ، وتلجُّ في طلبها ، ولكنَّ الحياة تنتهي بها إلى يقينٍ لا شكَّ فيه ، هو أنَّ ألطف أنواعِ حرِّيتها في ألطف أنواع استعبادِها !

« حتَّى في خيالي أرى لك هيئة الآمر النَّاهي أيُّها القاسي ! لا أحبُّ منك هذا ، ولكن لا يُعجبني منك إلا هذا . . !

« ويزيدك رِفعةً في عينيَّ : أنَّك لم تحاول قطُّ أن تزيد رِفعةً في عيني .

« فالمرأة لا تحبُّ الرَّجل الَّذي يعمل على أن يَلفِتها دائماً ؛ ليرفع من شأنه عندها .

« إنَّ الطَّبيعة قد جعلت الأنوثة (في الإنسان) هي التي تَلفِت إلى نفسها

بالتَّصنُّع ، والتزيُّدِ ، وعَرْض ما فيها ، وتكلُّف ما ليس فيها ؛ فإن يَصنع الرَّجل صنيعها ؛ فما هو في شيءٍ إلا تزيين احتقارِه !

« التزيُّد في الأنوثة زيادةٌ في الأنثى عند الرَّجل ، ولكنَّ التزيُّد في الرُّجولة نقصٌ في الرَّجل عند الأنثى !

* * *

« ارفع صوتَك بكلماتي تسمعْ فيها اثنين : صوتَك ، وقلبي .

« ليست هي كلماتي لديك أكثر ممَّا هي أعمالك لديَّ .

« وليس هو حبِّي لك أكبر ممَّا هو ظلمك لي !

« ما أشدَّ تعسِي إذا كنتُ أخاطب منك نائماً يسمع أحلامَه ، ولا يسمعُني !

« ما أتعسَ مَن تُبكيه الحياة بكاءَها المفاجئ على ميِّتٍ لا يرجع ، أو بكاءَها المألوف على حبيبٍ لا يُنال !

* * *

« ولكن فلأصبرْ ، ولأصبر على الأيَّام الَّتي لا طعم لها ؛ لأنَّ فيها الحبيب الَّذي لا وفاء له !

« إنَّ المصابَ بالعَمى اللَّونيِّ يرى الأحمر أخضر ، والمصاب بعمى الحبِّ يرى الشَّخص القفْرَ كلّه أزهار .

« عمىً مركبٌ أن تكون أزهاراً من الأوهام ، ولها مع ذلك رائحةٌ تَعْبَق .

« وعمىً في الزَّمن أيضاً أن ينظر إلى السَّاعة الأولى من ساعات الحبِّ ، فيرى الأيَّام كلَّها في حكم هذه السَّاعة .

« وعمىً في الدَّم ، أن يشعر بالحبيب يوماً ، فلا يزال من بعدها يُحيي خياله ، ويغذيه أكثر ممَّا يحيي جسمَ صاحبِه .

« وعمىً في العقل ، أن يَجعل وجهَ إنسانٍ واحدٍ كوجه النَّهار على الدُّنيا ، تظهر الأشياءُ في لونه ، وبغير لونه تنطفئ الأشياء .

« وعمىً في قلبي أنا هذا الحبُّ الَّذي في قلبي !

* * *

« ليس الظَّلامُ إلا فِقدان النُّور ، وليس الظُّلمُ في النَّاس إلا فِقدان المساواة بينهم .

« وظلم الرِّجالِ للنِّساء عملُ فِقدانِ المساواة لا عملُ الرِّجال .

« كيف تسخر الدُّنيا من متعلمةٍ مِثلي ، فتضعُها موضعاً من الهوانِ ، والضَّعفِ بحيث لو سُئلت أن تكتب (وظيفتها) على بطاقةٍ ؛ لما كتبت تحت ٱسمها إلا هذه الكلمة : (عاشقة فلان) . . . ؟

« وحتَّى في ضَعف المرأة لا مساواةَ بين النِّساء في الاجتماع ، فكلُّ متزوِّجةٍ وظيفتُها الاجتماعيَّة أنَّها زوجةٌ ؛ ولكن ليس لعاشقةٍ أن تقول إن عِشقها وظيفتُها . .

« وحتَّى في الكلام عن الحبِّ لا مساواة ، فهذه فتاةٌ تحِبُّ فتتكلَّم عن حبِّها ، فيقال : فاجرةٌ ، وطائشةٌ . ولا ذنبَ لها غير أنَّها تكلَّمت ؛ وأخرى تحبُّ وتكتم ، فيقال : طاهرةٌ ، عفيفةٌ . ولا فضيلة فيها إلا أنَّها سكتت .

«أوَّلُ المساواة بين الرِّجال والنِّساء أن يتساوَى الكلُّ في حرية الكلمة المخبوءة . .

« لا . . . لا ؛ قد رجعت عن هذا الرأي . .

* * *

« إنَّ القلقَ إذا استمرَّ على النفس انتهى بها آخر الأمر إلى الأخذ بالشاذ من قوانين الحياة .

« والنِّساءُ يُقلقنَ الكونَ الآن ممَّا استقرَّ في نفوسهنَّ من الاضطراب ، وسيُخَرِّبنَه أشنعَ تَخريب .

« ويلٌ للاجتماع من المرأة العصريةِ الَّتي أنشأها ضعف الرَّجل ! إنَّ الشَّيطانَ لو خُيِّر في غير شكله لما اختار إلا أن يكونَ امرأةً حرَّةً ، متعلمةً ، خياليةً ، كاسدةً ، لا تجد الزَّوج . . . !

« ويلٌ للاجتماع من عذراءَ بائرةٍ خياليَّةٍ ، تريد أن تفرَّ من أنَّها عذراء ، لقد امتلأت الأرض من هذه القنابل . . . ولكن ما من امرأةٍ تفرِّطُ في فضيلتها إلا وهي ذنبُ رجلٍ قد أهمل في واجبه .

* * *

« هل تَملِكُ الفتاة عِرْضَها ، أو لا تملك ؟ هذه هي المسألة . . .

« إنْ كانت تملك ؛ فلها أن تتصرَّف ، وتعطي ، أوْ لا ؛ فلماذا لا يتقدَّمُ المالك ؟

« هذه المدنيَّة ستنقلبُ إلى الحيوانيَّة بعينها ؛ فالحيوان الَّذي لا يعرف النَّسبَ لا تعرفُ أنثاه العِرْض . . . !

« وهل كان عَبَثاً أن يَفرِض الدِّينُ في الزَّواج شروطاً وحقوقاً للرَّجل ، والمرأة ، والنَّسل ؟

« ولكن أين الدِّين ؟ وا أسفاه ! لقد مَدَّنوه هو أيضاً . . . !

* * *

« طالت رسالتي إليكَ يا عزيزي ! بل طاشت ، فإنِّي حين أجدُك أفقدُ اللُّغة ، وحين أفقدُك أجدُها .

« ولقد تكلَّمت عن الدِّين لأنِّي أراكَ أنت بنصفِ دين . . .

« فلو كنتَ ذا دينٍ كاملٍ ؛ لتزوَّجت اثنتين . . . !

« لا . . لا ، قد رجعتُ عن الرأي . . » (طبق الأصل) .

* * *